

وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس الجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م

سورة الإنسان مكية

وقيل : مدنية

وهي إحدى وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

قوله ((هل أتى الخ)) وإن كان في صورة الاستفهام فإن المراد به التقرير والتحقيق فتكون [هل] قامت في الآية مقام [قد] نفسها . وذلك كقولك لآخر : "هل أكرمتك ؟" والمخاطب يعرف أنك أكرمته . وإنما تريد تحقيق الاكرام وتأكد أمره . كأنك تقول : "قد أكرمتك" . وكذلك الشأن في الآية ؛ فإن كل واحد من بنى الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه شيئا مذكورا بل كان شيئا منسيا لا يفظن له أحد ، وذلك مذ كان جرثومة في صلب أبيه ، أو جواهر فردة منبثة في عناصر هذا الكون . أو المراد بالإنسان نوع الإنسان بجملة ، فإنه أيضا مر عليه حين من الدهر — الله وحده يعلم مقداره — كانت هذه الكرة الأرضية خالية منه ، فلم يكن شيئا مذكورا ، بل كان شيئا منسيا مغمورا ، لا يذكره ولا يعلم به إلا الذي يريد أن يخلقه وهو الله تعالى . بعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن فيه موجودا أخذ يشرح كيف أفاض الله عليه نعمة الوجود واختبره بالتكليف بعد أن منعه بنعمة الإدراك والحواس فقال : ((إنا خلقنا الإنسان)) ، أى نوع الإنسان ، أو كل فرد من أفراده . ((من نطفة)) مؤنثة ، وهى القليل من الماء ، كما ذكر في ختام السورة السابقة . فتكون فاتحة هذه السورة مرتبطة بخاتمة تلك ، ومقررة لمضمون ما ذكر فيها . وهذه النطفة (أمشاج) أى أخلط واحداه مشج ومشج ومشج ؛ يقال مشج الشيثين ، ومشج بينهما إذا خلطهما ومزج أحدهما بالآخر . ووصف [النطفة] وهى مفرد بالأمشاج وهى جمع على عادة العرب فى طائفة من كلمات لغتهم هى جموع لكنهم يصفون

نبتيه

بها المفردات اعتبارا بأجزائها : فيقولون مثلاً "ثوب أخلاق" كما يقولون "ثوب خلق" ويريدون في الأول أن الخلقة أى البلي عمت جميع أجزائه ولم تقتصر على بعضها. أما قولهم ثوب خلق بالإنفراد فليس نصاً في خلقة جميع الأجزاء، بل يحتمل أن يكون بعض أجزائه خلق وبعضها غير خلق. وهكذا نطفة أمشاج فإنه يدل على أن كل جزء منها مشيج مزيج من طبائع مختلفة ، وعناصر متعددة .

وأمشاج البدن عناصره وطبائعه التى يتركب منها . فالآية تشير إلى أن العناصر والطبائع التى يتركب منها بدن الإنسان لحين اشتداده وتمازج نموه كانت محبوبة في النطفة الصغيرة والموهبة الحقيمة التى تكون منها ، وإذا كان الإنسان قد ركب من طبائع أمشاج مختلفة فهو يورث تلك الطبائع بالضرورة أنسالة وأعقابها ، فتنتقل إليهم ، وتتوزع بين أفرادهم ، على تفاوت في ذلك من حيث الكيف والكم ، والقوة والضعف ، والأحوال الأخرى ، وهذا معنى قوله تعالى : (وقد خلقكم أطواراً) عند من قال من المفسرين إن المراد بالأطوار الغزائر المتباينة ، والطبائع المختلفة التى ركبت في فطر البشر .

ولماذا يارب خلقت الإنسان هكذا أمشاجاً ذا طبائع مختلفة ، غرسها فيه منذ كان نطفة، ثم نقلها إلى أفرادها بعد أن شبوا وكبروا وتفرقوا على وجه البسيطة ؟ قال تعالى في جواب هذا السؤال : إنا خلقناه كذلك (نبتيه) ، أى مردين ابتلاء واختباره فيما نوجه إليه من الشرائع والتعاليم ، وفيما نمهد أمامه من سبل التكليف ، لنرى أيكفر أم يشكر؟ ويستقيم في سيره أم يضل ويعثر؟ ولو لم يكن نوع الإنسان مخلوقاً مشيجاً من طبائع مختلفة ، وغزائر متباينة ، بل كان ذا عنصر بسيط ، وطبيعة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين لكانت أفرادها كذلك ، فيندفعون في أعمالهم ومساعيهم إلى سلوك طريقة واحدة ، والتزام شاكلة فاردة ، فلا يتم الابتلاء والاختبار الذى أراده تعالى في قوله (نبتيه) ، ولا يبقى معنى للتشريع والتكليف ، بل لم يكن عالم بشري ولم ينشأ عمران إنساني ، وربما كان هذا هو تأويل قوله تعالى في سورة هود : (ولو شاء ربك لجلل الناس أمة واحدة) أى ذات صبغة في الطبائع والغزائر واحدة . لكنه تعالى لم ينشأ ذلك ليم قيام العالم الإنساني ويبلغ طور كماله ، فجعلهم أمماً مختلفة في الطبائع والغزائر والاستعدادات فهم بسبب ذلك يختلفون في مساعيهم ، ويتنافسون في أعمالهم وسائر شؤونهم (ولا يزالون) هكذا (مختلفين) اختلافاً يؤدي بعضهم إلى سعادته ، وبعضهم الآخر إلى شقاوته ، (إلا من رحم ربك) أى لكن الموفقين ممن رحمهم الله وأراد لهم السعادة يسلكون سبلها ، ويردون

جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ

مشارعها (ولذلك) أى لأجل هذا الاختلاف الذى يتوقف عليه قيام أمرهم ، ونشوء عمرانهم وتكامل اجتماعهم - (خلقهم) سبحانه وتعالى .

قلنا : إن الله تعالى خلق الإنسان من نقطة أمشاج فكان ذا طبائع أمشاج ليم الابتلاء والاختبار . ولكن هل يتم ذلك من دون أن يكون للبلى المتعقبات عقل ونطق واختيار ؟ كلا ولذلك قال تعالى : ﴿ جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى خلقناه من نقطة ذات أمشاج لأجل امتحان أمره بالتكاليف والشرائع (جَعَلْنَاهُ) من أجل ذلك ، ومن أجل أن تقوم الحجّة عليه (سميعاً) ذا سمع يسمع به الوحي والحكمة والشرائع ، (بصيراً) ذا بصر يبصر به الآيات والعر ، ويسعى بنوره إلى تلقى العلم والمعرفة ، وما به يقوم أمره ، وينتظم حاله ، فلم يبق له - بعد أن منحناه السمع والبصر - من حجة يحتج بها ، أو عذر يتعلل به .

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : (جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) : إننا جعلناه ذا عقل وإدراك يميزه الخير من الشر ، والحق من الباطل ، ويتمكن من اختيار ما به صلاحه وسعادته . وإنما كان قوله : (سميعاً بصيراً) دالاً على ذلك ، لأن استجمام عقل الإنسان ، واستجماع قواه ومداركه إنما يكون من طريق هاتين الحاستين - السمع والبصر - ولو ولد البشر صمياً عمياً منذ أول نشأتهم على وجه البسيطة ما كان لهم من العقل والإدراك مثل ما لهم اليوم ، أو ما كانوا بشراً ، بل مخلوقاً آخر له سنن حياته ونواميس لمعيشته الله أعلم بها .

أهذا يارب كل ما منحته الإنسان وسلحته به إرادة الابتلاء والاختبار الذى كتبته عليه مذ خلقته ؟ أم هناك شيء آخر وراء ذلك ؟ فإن عقل الإنسان مهما حصف ، ومداركه مهما استجسست - تبقى معرضة للغي والزيغ مرة ، والخيرة والاضطراب مرة أخرى ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّا ﴾ فوق ما منحنا الإنسان من نعمة العقل والإدراك ﴿ هَدَيْنَاهُ ﴾ دللناه وأرشدناه وأريناه ﴿ السَّبِيلَ ﴾ والمراد بالسبيل جنس السبيل كأنه يقول : أشرعنا أمام عينيه السبل المختلفة مذ أوحينا إليه شرائعنا بواسطة الرسل . وقد تضمنت هذه الشرائع أمهات الفضائل والأعمال الصالحة ، وأمرناه بممارستها . واتباع طريقها ، كما أبنا له فى هذه الشرائع الذنوب والآثام التى لا نرضاهل ونهيناه عن إتيانها ، وسلوك طريقها . أنزلنا له ذلك ، ودللناه عليه ، ثم إنه بعد هذا وبد أن

إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾
 إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ

منحناء العقل — (إما) أن يكون (شاكرًا) لنعمتنا ، فيسلك سبيل الخير والطاعة ، فيستحق رضانا ، ويدخله دار كرامتنا ، (وإما) أن يكون (كفورًا) لأنعمنا ، فيخالف أمرنا ، ويكذب وحينما ، ويختار لنفسه سبيل الشر والفجور ، فيستحق سخطنا ، ويدخله دار عذابنا . فإله تعالى دل الإنسان على سبيل الشكر والكفر ، وعليه هو أن يختار سلوك هذا أو ذاك . وهذه الآية من جملة الآيات الكثيرة الدالة على أن للإنسان إرادة واختيارا هما مناط التكليف .

قوله (إنا أعتدنا الخ) شروع فيما أعده الله يوم القيامة لكل من فريق الشاكرين الطائعين ، والمعاندين الجاحدين . ومعنى (أعتدنا) أعددنا وهيانا . و[السلاسل] القيود ، وقالوا إنها تكون في الأرجل . أما [الأغلال] فالأطواق من حديد أو قيد ، وتكون في الأيدي . و[السعير] النار الموقدة .

[والأبرار] جمع بر بفتح الباء ، والبر والبار من جمع في نفسه بين الصدق والتقوى والإخلاص إلى الله والإحسان إلى خلقه . و[الكأس] كما تطلق على الزجاجة بشرابها تطلق على الشراب نفسه . وضمير [مزاجها] يرجع إلى الكأس بالمعنى الثانى . وكل شئئين اختلطا كان أحدهما مزاجا لصاحبه ، فمزاج ذلك الشراب الذى يشرب منه الأبرار كافور و[الكافور] طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين ، وهو من أنفس الطيوب عند العرب . والمراد أن من شرب تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها وفوحان شذاها كالكافور .

ولما ذكر أن الأبرار يشربون شرابا هذه صفته عاد فمدحه بقوله : (عينا يشرب بها عباد الله) فعينا منصوب على الاختصاص بالمدح ، وفي ذكرها زيادة بيان للشراب الذى يشربه أولئك الأبرار ، من حيث إنه مستمد ومستقى من تلك العين . وفعل [يشرب] يتعدى إلى مفعوله بنفسه تارة فيقال يشربها ، وبالباء تارة كما في الآية فيقال يشرب بها ، ومنه قول عنترة في ناقته :
 شَرِبْتُ بِمَاءِ الدُّحْرَضَيْنِ فَأَصْبَحْتُ زوراء تنفر عن حياض الديلم

والدحضان ماءان يقال لأحدهما "دحرض" . والآخر "وسيع" فنُلب دحرضا لشهرته على الآخر . يقول : إن ناقته شربت من ماء هذين الموردين ومن ثم أصبحت مائلة نافرة عن الحياض الأخرى المسماة "حياض الديلم" وقد اختلفوا فيها وفي سبب تسميتها بحياض الديلم اختلافا كبيرا .

يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُؤْفُونَ بِاللَّذِّيرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ

وقال البصريون الباء في الآية وفي قول عنتره وأمثالها زائدة كزيادتها في قوله تعالى :
(ألم يعلم بأن الله يرى) ، وفي قول الشاعر :

هن الحرائر لا أرباب أنحمة سود المحاجر لا يقرآن بالسور

وفي قولهم : " تكلم فلان بكلام حسن " ، فيجوز حذف الباء في الكل .

و (عباد الله) هم الأبرار المذكورون ، أعاد اسمهم بهذا الوصف تكريما لهم ، وتشريفا
بإضاقهم إليه تعالى . و [يَفَجِّرُ] الماء بالتشديد مبالغة في بخر الثلاثي إذا بجسه وشق له طريقا
يجرى فيه بشدة بعد أن كان محبوسا . وقوله (يفجرونها) وصف للعين التي يشرب ماءها الأبرار .
يقول : إن تلك العين موالية لهم في الانبثاق والجريان ، فهم ينتفعون بها ، ويتناولون ماءها
كيفما شاءوا وأحبوا . وسيأتى لنا في هذه السورة بيان النعيم الذي يكون للأبرار في الجنة ، والعذاب
الذي يكون للفجار في جهنم .

كأن قائلا يقول : وبماذا يستحق الأبرار منك هذا الإكرام يا رب ؟ فأجاب بقوله :
(يؤفون بالندى ويخافون الخ) ، فذكر من خلافتهم التي استحقوا بها ذلك ثلاث خصال :
خوفهم يوم القيامة ، فإن الخوف الحق منه يجعل المرء ينشط للطاعة ، وعمل الصالحات ،
وممارسة الفضائل ، واجتناب المعاصي . وإن لم يفعل لم يكن خائفا ، ولم يكن من الأبرار وإن
اتسم بسمتهم ، وادعى أنه مستقيم على مثل طريقتهم .

و (مستطيرا) منتشرا فاشيا في كل جهة . وأكثر ما يستعمل في ما فيه نار أو نور : يقال :
استطار الحريق ، واستطار الفجر والبرق .

والشر والشئب يستعار لهما اشتعال النار كثيرا ، فناسب أن يقال فيهما استطار . ويقال
أيضا استطار الغبار إذا سطع وانتشر .

وذكر من خلائق أولئك الأبرار أيضا العناية بضعفاء البشر ومواساتهم ، والاجتهاد في إيصال
كل خير إليهم ، ودفع كل ضرر عنهم . فقال تعالى : (ويطعمون الطعام الخ) . وقد قلنا إن هذا

مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

الخلق من أخص أخلاق الأبرار، ومن ثم قال الحسن البصري : "البر من لا يؤذى الذر". وإنما ذكر من ضروب المواساة إطعام الطعام لكونه الأصل في قيام البنية ، وحصول الحياة ، وإلا فإن البار لا يقتصر من عمل الخير ومعونة الضعفاء على الإطعام فقط . وسيأتى . وقد عم في عنوان هؤلاء الضعفاء أولا فقال (مسكينا) والمسكين مشتق من السكون ، وهو الذى جعله فقره أضعفه أو ذله أو انقطاع أسباب الدنيا عنه — ساكنا قليل الحركة بحيث لا يُفطن إليه فيعطى ، ولا يعتنى به فيواسى . ثم خص من هؤلاء المساكين نوعين هما أشد عرضة للضياع والتلف من سائرهم : [اليتيم] وهو الصغير الذى فقد والده ولم يبلغ مبلغ الرجال ، أو المراد به هنا من نقد كافله من أب وأم وغيرهما فأصبح وحيدا بمعزل عن الناس ؛ فإن اليتيم في اللغة المنفرد من كل شىء حتى سمو البيت المنفرد والبلد المنفرد والرملة المنفردة يتيما لذلك . فهذا الصغير المنفرد عن الكافل في مدرجة الهلاك والضياع ، وإن العناية به بالتربية والتعليم والإطعام والإلباس من سمات الأبرار ، والتفريط في حقه وإهمال أمره من صفات الفجار .

ومن الضعفاء الذين خصهم القرآن بالذكر من بين المساكين ، وحض على مواساتهم وإطعامهم والعناية بهم [الأسير] ، ويعنى به من كان من غير أبناء ملتنا إذا وقع في أيدينا بعد حرب وقتال . أما مواساة الأسير إذا كان من أبناء ملتنا فبالطريق الأولى . هؤلاء الأسارى — لمخالفتهم لنا في الدين والقومية واللغة أحيانا ، ولانقطاعهم في بلادنا عن الناصر والمعين ، ولما تأصل بيننا وبينهم من الأحقاد والعداوات — يصبحون عرضة للإيذاء والتحقير والعنت . فالقرآن هتف بالمؤمنين منها لهم ، ومحذرا من إجاعتهم وإرهاقهم وإساءة معاملتهم مذ قال (وأسيروا) أى ومن صفات الأبرار أنهم يطعمون الأسير غير المسلم ، ويرفقون به ، ولا يدعون أحدا يخلص بشر أو أذى إليه ، ولا يحملونه فوق طاقته من الأعمال .

تقول ، ومن أين فهمت النهى عن الأذى والله تعالى إنما أمرنا بإطعامه ؟ أقول : إن هذا على حد قوله تعالى : (ولا تقل لها أف) . نهانا عن كلمة أف للوالدين ، فكان نهيا عن سائر ضروب الإغضاب ، وهنا نهانا عن إجاعة الأسير فكان أمرا بالمواساة العامة ونهيا عن سائر ضروب الإيذاء ؛ لأن الأذى النفسى أشد نكاية وإيلاما من الأذى الجسمى ، وليس ذكر

الطعام إلا مثالا ، قال المفسر النيسابوري : ” ثم إن الإطعام ليس بواجب على التعيين ولكن الواجب مواساته بأى وجه كان ، وإنما عبر عن المواساة بالإطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الاحسان هو الطعام الذى به قوام البدن ؛ يقال : ” أكل فلان مال فلان إذا أتلفه بأى وجه كان ، وإن لم يكن بالأكل نفسه “ اهـ .

أما أن المراد بالأسير الأسير غير المسلم فهذا ظاهر من أن المخاطبين حين نزول هذه الآية لم يكن يقع في أيدىهم إلا الأسارى من مشركى العرب . وقد نقل عن عكرمة وقتادة أنهما قالوا في تفسير هذه الآية : ” لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم وإن أسارى الصحابة يومئذ لأهل شرك “ ، وقال الحسن البصرى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : ” أحسن إليه “ ، فيكون عنده اليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا منقبة للقرآن ، وشهادة على سموات آداب الإسلام .

وقوله : (على حبه) أى على حب الطعام . والمعنى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام فى سدّ جوعتهم وجوعة عيالهم يطيبون نفسا عنه للبؤساء ، ويؤثرونهم به على أنفسهم . أما الخصلة الثالثة التى استحق بها الأبرار رضاء الله وكرامته فهى الوفاء بالنذر . وأنت ترى أنه خص هذه الخصلة بالتقديم على الخصلتين الأخريين ، وليس ذلك لأن المراد بها أن ينذر المؤمن لله صيام يومين ، أو صلاة ركعتين ، أو إطعام رغيفين ، ثم يفعل ما نذره - ليس المراد ذلك وإن كان الوفاء بما ذكرنا مطلوباً شرعاً ، وإنما المراد بالوفاء بالنذر الذى جعله الله من صفات الأبرار فى قوله تعالى : (يوفون بالنذر) - قوة الإرادة ؛ فلا يأخذ على نفسه عمل خير ، أو ممارسة فضيلة ، أو قياماً بأمر نافع له أو لقومه دنياً وأخرى - إلا أمضاه ووفى به . ويدخل فى ذلك الوفاء بما نذر من قربة أو طاعة . أما أن الواحد منا يفكر فى عمل صالح ينفع قومه ، ويعلن أنه يريد القيام به والإقدام عليه ، ثم يتقاعد عنه ويفتر ، ويماطل إذا سئل عنه ويعتذر - فهذا هو ضعف الإرادة الذى عابه القرآن فى غير ما موضع من آياته ، ولم يجعله من خصال الأبرار الذين يستحقون دخول جناته .

قال ابن جرير فى تفسيره : ” والنذر هو كل ما أوجبه الإنسان على نفسه من فعل ، ومنه قول عنتره :

الشائمي عِرضي ولم اشتهما والناذرين إذا لم آلقهما دمي اهـ

ولا يخفى أن سفك دم عنتره الذى نذره ابناً ضمّهم ليس من القربات فى شيء . فهذا هو النذر فى لغة العرب ، وهذا هو طريق استعماله حين نزول القرآن . ثم لما شاع استعماله فى نذر

إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِيُوجِهَ اللَّهُ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾

القربات والصدقات لم يعد يفهم منه إلا نذر هذه الأشياء : ككثير من كلمات اللغة الواردة في القرآن والسنة ، اختلفت معانيها باختلاف الزمان ^(١) ، وعلى المفسر المتقن أن ينتبه إلى ذلك الاختلاف . وليفطن إلى أن الوفاء بالنذر الذي مدحه القرآن في هذه الآية عبارة عن قوة الإرادة التي من آثارها إبراز كل عمل صالح نافع إلى ساحة الوجود بعد أن جرى التصميم عليه في ساحة الفكر ، وإن لم يبرزه المفكر لم يكن موفيا بالنذر ، ولم يكن من الأبرار الذين تصدق عليهم هذه الآية ، بل تصدق عليه آية (يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

وقوله ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ﴾ الخ ليس من قول أولئك الأبرار المطعمين بألسنتهم ، بل ليس من المباح أن يخاطبوا به هؤلاء المساكين المتحلقيين حول موائدهم ، وإنما هو مما قاله الوحي عنهم مشيرا إلى أن حالهم ناطقة بذلك . وقال عاهد وسعيد بن جبير : ” أما والله ما قالوا ذلك بألسنتهم ، ولكن علمه الله من قلوبهم ، فأثنى به عليهم ، ليرغب في ذلك راغب “ .

و(شكورا) مصدر شكر كالشكر والشكران ، والمعنى أنهم يواسون الفقراء والمساكين بإرادة اكتساب رضا الله بخدمة الخلق الذين هم عياله والاحسان إليهم ، لا لتحصيل غرض دنيوي أو مصلحة أو مكافأة تعود عليهم ، وإلا لم يكن المواسي محسنا إلى المساكين ، بل محسنا إلى نفسه ولم يكن خادما لعيال الله ، بل خادما لمصلحته ، ولا مقرضا ربه قرضا حسنا ، بل تابجا يبغي الربح من وراء سلعته .

رووا عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت من الفقراء ، ثم تسأل الذي أرسلته بالصدقة : ما قالوا لك ؟ فإن ذكر أنهم دعوا أخذت هي بالدعاء لهم ، ليبقى عملها الصالح خالصا لوجه الله ، لا واقعا في مقابل عوض من دعايمهم .

(١) من ذلك كلمة الولي التي جاءت في القرآن بمعنى الناصر كما في قوله تعالى : (إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ثم أصبح لها في العرف معنى آخر وهو ذوات الكرامات من المشايخ . وكلمة (الصالح) التي جاءت في القرآن بمعنى القادر على العمل كقوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) أي القادرون على عمارتها ، ثم أصبح لها معنى آخر وهو المسلم الذي يصوم ويصل ولا يرتكب كبيرة .

إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِرًا ﴿١٠﴾ فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْم نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾

قوله ﴿إنا نخاف﴾ الخ هذا أيضا مما يقوله الأبرار بلسان حالهم في السبب الذي بعثهم على إطعام المساكين ، ومواساة المستضعفين : ذكروا أولا أنهم إنما أطعموهم لوجه الله ، ورغبة في رضاه لا طمعا في جزاء مجازي ، أو ثناء مني ، وقالوا هنا إنهم إنما أطعموهم لكونهم يخافون من أيام ربهم ﴿يوما عبوسا قططيرا﴾ وهو يوم القيامة الذي ذكر من قبل أنهم يخافونه ؛ ووصفه باستطارة شره ، وفظاعة أمره ، وهذا هو الخوف الحق الذي ينفع صاحبه ؛ فيحملة على الرفق بالفقراء ، ومواساة الضعفاء .

وأراد من وصف اليوم [بالعبوس] شدته وعظم هوله على الخلائق ، أو أراد أن الخلائق أنفسهم يكونون من شدة الغم والقلق الذي يفشاهم في ذلك اليوم ذوى عبوس شديد ، فنسب العبوس إلى اليوم لا إليهم توسعا ، نحو قولهم : "نهاره صائم" ، وإنما الصائم الشخص لا اليوم ، ونحو :

وأخو الهموم — إذا الهموم تحضرت جُنَحَ الظلام — وسأده لا يرقد

جعل الوساد لا يرقد ، وإنما الذي لا يرقد صاحبه .

وقوله : ﴿قططيرا﴾ أى شديدا مظلما عصيبا ، ويقولون "شر قططير" أى شديد ، ورجل قططير ، شديد العبوس ، قد قبض ما بين عينيه من فرط الغم .

هؤلاء المحسنون الأبرار ، الذين خففوا آلام المرهقين المتعبين ، وعطفوا على ذوى البؤس والعجز في الدنيا خوفا من أهوال يوم القيامة — نالوا الثواب على حسن صنيعهم ، ﴿فوقاهم الله﴾ الذى فعلوا لأجله ما فعلوا من العمل الصالح ﴿شر ذلك اليوم﴾ أى أذى ذلك اليوم العبوس الذى خافوه ، ودفع عنهم ما كانوا يحذرون من شدته وهوله ومكروهه ، ﴿ولقاهم﴾ أى ألقى عليهم مكان الشدة والرهق والعبوس الذى يفشى الفجار ﴿نضرة﴾ حسنا وبشاشة وبريقا في وجوههم ﴿وسرورا﴾ أى فرحا وغبطة وحبورا في نفوسهم ، ﴿وجزاهم﴾ أنابهم وكفاهم ﴿بما صبروا﴾ في مقابل صبرهم على مرارة الطاعة والعمل الصالح والإيثار بالمال ﴿جنة﴾ دخول جنة ذات شان من الجنات التى أعدّها لأهل طاعته ، ﴿وحريرا﴾ أى وأنابهم أيضا حريرا .

مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾

وفي الآية إيجاز ، أخذ بأطراف الإعجاز . ذلك أنه أشار بقوله (جنة) إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار في دار الكرامة من صنوف الثمار الشمية ، والمطاعم الهنية ؛ فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها ذلك . كما أشار بقوله (حريرا) إلى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التي من أنفسهم وأغلاها عند العرب الحرير . فهو تعالى قد جمع لهم في الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام ، والشعور بلذة اللباس وكل هذا تنازل من العناية الإلهية في تصوير المسرات الأخروية إلينا معشر البشر ، وتقريبها من متناول أذهاننا . وسيأتي زيادة إيضاح لذلك .

ومن مظاهر الخفض والدعة والنعم التي يتقلب فيها أولئك المحسنون الأبرار ما وصفهم الوحي به في قوله (متكئين فيها) أي في الجنة (على الأرائك) جمع أريكة وهي السرير ترخى عليه الجلجلة ، والجلجلة هي ما يسدل على السرير من فاخر الثياب والستور ، ويتخذ عادة للعرائس ، ومن ثم يفرغ الوسع في تحسينها وتزيينها ، فإذا أريد من الجلجلة الوقاية من البعوض سميت ككة ، ونسبها اليوم "ناموسية" .

ومعنى اتكأهم على الأرائك أنهم جالسون عليها متمكنين . وللاتكاء معنى آخر وهو أن يجلس المرء على أحد شقيه معتمدا على وسادة أو نحوها ، وهذا المعنى هو المشهور المتبادر من الاتكاء عند الإطلاق . ولا تناسب إرادته في الآية ؛ لأن الأرائك لا يتكأ عليها بهذا المعنى ، وإنما يتكأ على الوسائد والتمساق ، اللهم إلا إذا جعلناه من موجز الكلام وأن أصله هكذا "متكئين على التمساق جلوسا على الأرائك" فحذف "على التمساق" دلالة "متكئين" عليها . وحذف "جلوسا" دلالة "على الأرائك" عليها . ويكون هذا الإيجاز كقوله بعده في صفة الأبرار أيضا إنهم (لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرا) يريد أنهم لا يرون في الجنة شمسًا ولا قمرًا . ولا يحسون حرا ولا زمهريرا . فذنفى رؤيتهم للشمس ألقى في الخلد أنهم لا يرون القمر أيضا ، كما أشعر أنهم لا يحسون الحر لأن القمر والحر كليهما من متولدات الشمس ، فهي التي تنير القمر فينير علينا ، وهي التي تشع حرارتها فتشعر بها أجسامنا ، أو أنه لما نفى أنهم يرون الزمهرير وهو البرد أشعر أنهم لا يرون الحر أيضا ، لأن الحر أخو البرد ، فانظر كيف استوعب بهاتين الكلمتين طائفة من المعاني . والقصد أن في الجنة نورا خاصا ليس منبعثا عن شمس ولا عن قمر ، وأن هواءها معتدل : ليس فيها شيء من حر الشمس المرمض ، ولا من برد الزمهرير المؤذي ، وهذا

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ ثَانِيَةً
مِّن فَضَّةٍ

هو المراد بالزمهرير في قول الأكثرين ، وقال بعضهم : إن الزمهرير هنا اسم للقمر في لغة طى ،
قال شاعرهم :

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما ظهر

وعطف الزمهرير في الآية على الشمس ربما أشعر بأن المراد منه القمر ، فهو تعالى يقول إنهم
لا يرون في الجنة شمساً ولا قمرًا ، وإن لهم من نورها الخاص بها ما يغنيهم عن ضياء هذين
النيرين .

قوله (ودانية) الخ عطف على (متكئين) أو على (لا يرون) وكلها أوصاف للأبرار، وأحوال
من الضمير الراجع إليهم في (وجزاهم) ، وضمير (ظلالها) و (قطوفها) للجنة ، والمراد بظلالها ظلال
أشجارها ، وهو كناية عن اشتباك أغصان تلك الأشجار وتهدلها من حوالى الجالسين تحتها ، وإلا
فإن الظلال أثر من آثار ضياء الشمس ، وقد ذكر آنفاً أنه لا شمس في الجنة ، اللهم إلا أن يكون
لنور الجنة الخاص بها ظلال تتولد عنه ، و [القطوف] جمع قطف بكسر القاف العنقود ساعة
يقطف ، ومعنى (ذلت قطوفها) أن عناقيد ثمارها قد خلقها الله سهلة القطف ، قريبة من أيدي
المتناولين ، لا يحول بينها وبينهم بعد ولا شوك .

يقال ذل الرجل ذلاً بضم الذال إذا هان وحقر بعد عز، فهو ذليل، وذل البعير ذلاً بكسر الذال
سهل وانقاد بعد صعوبة ، فهو ذلول ، ومن هذا الأخير "بقرة ذلول" و "ناقة ذلول" — ويلفظها
الناس "دلول" بالبدال المهملة — (وجعل لكم الأرض ذلولاً) ، وفي خطاب النحل : (فاسلكي
سبل ربك ذلولاً) ومنه تذليل القطوف هنا ، ويقولون : ذلل الكرم إذا دلت عناقيده ، و [الآنية]
جمع إناء ، وهو الوعاء يوضع فيه الطعام والشراب ، وقد فهم بعضهم من قوله : (ويطاف عليهم
بآنية) أن أهل الجنة يأكلون طعامهم على الطرز الذي عليه أهل الترف اليوم مذهب الغلمان
صحاف الطعام حول المائدة ، ويدنون من الآكلين واحداً واحداً ، فيتناول كل منها حاجته .

وَأَكْوَابٌ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۖ (١٥) قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۖ (١٦)

وعطف قوله (وأكواب) على (آنية) يشعر أنه يريد بالآنية صحاف الطعام ، لأن الأكواب أواني الشراب ، وهي جمع كوب ، والكوب قدح مستدير الرأس لا عروة له ولا خرطوم ، ونحرفه اليوم فنقول "كباية" .

ذكر أولا أن آنية الطعام من فضة ، ثم لما جاء لوصف أكواب الشراب قال (كانت قواريرا قواريرا) و [القوارير] جمع قارورة ، وهي وعاء الزجاج المعروف ، فهو يقول إن الأكواب زجاجات ، ثم قال إن تلك الزجاجات متخذة (من فضة) ، فكيف يكون ذلك والفضة غير الزجاج ، والمعدنان مختلفان أيما اختلاف ؟ ولمكان هذا الإشكال الذي خامر نفس السامع أكد كلمة القوارير مكررا لها ، فهو يقول : إن هذه الأكواب مع كونها متخذة من فضة هي قوارير هي قوارير ، فالسامع ينتبه بهذا التكرار إلى أن الأمر جد ، وأن الحكم عليها بأنها قوارير ليس إلا لمعنى دقيق اقتضى وصفها به مع أنها في ذاتها من فضة ، وبعد التأمل يدرك أنها إنما سميت قوارير لكونها رقيقة شفافة شفوف القوارير ، فهي إذن قد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفائها ، وشفوف القوارير ورقتها ولآلئها .

تقول : ولماذا أقم كلمة (كانت) بين (أكواب) و (قوارير) وهي لو طرحت لصح المعنى ؟ أقول (كانت) هنا هي من الكون الذي يقع بعد قوله تعالى للشيء (كن فيكون) و "كن فكان" أي فيتكون ذلك الشيء ويحصل بمجرد تعلق مشيئة الله به . فهو إذن من عالم الإرادة الإلهية لا من عالم الأسباب الدنيوية . فكون تلك الأكواب بما جمعت من صفات الإبداع فوق كل ما يتصوره العقل من صنوف الأكواب التي تعاورتها الصناعة الدنيوية .

والضمير في (قدروها تقديرا) يصح إرجاعه إلى السقاة الطائفين بالأكواب كما يصح أن يكون راجعا إلى الشاربين المطوف عليهم بها ، فالمعنى على الأول أن السقاة يقدرون الشراب الذي يقدمونه للشاربين في تلك الأكواب بحيث لا يزيد على رغبتهم ولا ينقص عنها ، فيكون ذلك أهنا لهم وأمرأ . والمعنى على الثاني أن الشاربين قدروا في نفوسهم تلك الأكواب وتصوروها على أوضاع وأشكال مختلفة ، فكانت إذا تناولوها رأوها مطبق أمانهم ، وعلى مثال تقديرهم .

وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾

مر أن مزاج الكأس التي يشرب بها الأبرار في الجنة كافور ، وأن العين التي يتناول منها شراب تلك الكأس يفجره أولئك الأبرار ويجرونه أنى شاءوا من الجنة ، وقد ذكر هنا أن تلك العين (تسمى سلسبيلا) وأن مزاج الكأس التي يسقونها يكون (زنجبيلا) ، وذكرنا أيضا أن معنى كون مزاجها كافورا فوحان رائحة الكافور منها عند شربها ، ولا ينافي هذا أن يفوح منها أحيانا رائحة الزنجبيل : تفوح الرائحتان معا ، أو مرة هذه ومرة تلك .

وقيل المراد أنهم يجدون طعم الزنجبيل في الشراب ، لا أنهم يشمون شذا الزنجبيل من الشراب شما .

و[الزنجبيل] عروق نبات كالقصب تمتد في الأرض ، ويتولد فيها عقد حريفة الطعم ، معرب "شككيل" بالفارسية . والعرب يستلذون طعمه كما يستلذون رائحة الكافور . قال الأعشى :

كَأَنَّ الْقَرْفَلَ وَالزَّجْبِيلَ بَاتَا بَعْضُهُمَا وَأَرِيَا مَشُورَا

يصف طعم فم محبوبته وحلاوته في المذاق . [والأرى] العسل و[المشور] اسم مفعول من شار العسل إذا اجتناه من خلية . ومثل الزنجبيل في استلذاهم طعمه في الخمر الفلفل ؛ قال حسان بن ثابت :

وَلَقَدْ شَرِبْتَ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا صَبَاءُ صَافِيَةٍ كَطَعْمِ الْفَلْفَلِ

وقال امرؤ القيس :

كَأَنَّ مَكَائِي الْجَوَاءِ غُدِيَّةٌ صُبْحَنُ سُلَاقًا مِنْ رَحِيقِ مَفْلَقِ

يقول كأن طيور هذا الوادي وقت الصباح شربت رحيقا تفوح منه رائحة الفلفل ، أو يلذع اللسان لذع الفلفل ، ولذلك أكثر الصدح والتغريد .

وسميت العين (سلسبيلا) لسهولة مساغها وانحدارها في الخلق . وأصل المادة [سلس] تدل على اللين والسهولة والانتقاد حتى يقولون "في كلام فلان سلاسة" يعنون رقة وانسجاما وسهولة . ويزيدون على هذه المادة لاما في آخرها فتدل على غاية السلاسة : فيقولون "سلسل" و "سلسال" يريدون بهما الماء العذب السهل الجريان في الخلق لعدوخته وصفائه . ويزيدون

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿٢١﴾
وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَمْلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾

عليها أيضا باء فتفيد إذا ذاك غاية النيات في السلاسة فيقولون : "سلسيل" ويريدون به الماء الكثير السوغان في الحلق . وبذلك سميت تلك العين في الجنة سلسيلا ، لأن ماءها هذه صفته . وهو بذكر السلسيل دفع توهم الشعور بحرارة الزنجبيل ولذعته في المذاق ، فكأنه يقول : إن الكأس تمزج بالزنجبيل فيشعر الشاربون بطعمه لكنهم لا يشعرون بحرافته ، فيبقى الشراب سلسيلا سهل المساغ في الحلق .

قوله : (ويطوف عليهم) أى ويطوف على أولئك الأبرار بالآنية والأكواب وسائر ضروب الخدمة (ولدان) وُصفَاء (مخلدون) من الخلود أى لا يموتون . وقيل لا فائدة في هذا الوصف لأن أهل الجنة كذلك . وإنما هو من الخلود بمعنى إبطاء الشيب . والعرب تقول للرجل إذا كبر وثبت سواد شعره أو ثبتت أضراسه وأسنانه — : إنه لمخلد ، فوصفاء الجنة مخلدون ، يعنى أنهم لا يهرمون ولا يشيبون ولا يجاوزون ما هم فيه من سنّ الحداثة . ويقال لمثل هذا أيضا إنه مُقْتَبِل الشباب ، أى لم يظهر فيه أثر كبير ، بل هو كأنما يستأنف الشباب كل ساعة .

ولكن يرد على هذا القول ما أورد على سابقه ، ومن ثم جعله بعضهم من المخلد بمعنى السوار وتبعى القرط أيضا ، يقول إن أولئك الولدان مسؤرون أو مقرطون .

هؤلاء الولدان (إذا رأيتهم) منبئين في جنات الجنة مجتمعين مفرقين هنا وهناك (حسبتهم) في حسنهم وجمالهم وصفاء ألوانهم (لؤلؤا منثورا) ثمره ناثرت تحت مواقع عينيك ، فترى حبات منه مجمعة ملائمة ، وأخرى متفرقة متباعدة ، مما يزيد بها في النفس بهاء ورواء ، ويكسبها في العين رونقا ولآءا ، هذا إذا خصصت في النظر والتحديق إلى ما في الجنة من مظاهر الآنس والسرور (وإذا رأيتهم) أى وإذا أحببت أن ترمى ببصرك إلى ما هنالك من فخم المظاهر ، ومجموع المناظر (رأيت نعيما) أى نوعا من النعيم لا يوصف ولا يعهد له مثال ، (ومملكا كبيرا) أى واسعا مستوعبا لجميع ما يوفر على النفس راحتها وهناءها وسعادتها ومسراتها ، وقد أجهل في وصف الحالة التي عليها أهل النعيم في نعيمهم لأنه مما لا يحيط به وصف ، ويعجز أهل الدنيا — ما داموا في دنياهم — عن تصوّره ، ومعرفة حقيقته .

عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ مِّنْ سُندُسٍ مُّخْضَرٍّ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمُ رَبُّهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٣﴾

رجع إلى ذكر طور من أطوار الأبرار في الجنة ، وهو وصف ما يفرغ على أبدانهم من
ضروب الزينة واللبوس ، فقال (عليهم ثياب) الخ [على] اسم فاعل من علاه يعلوه إذا كان
فوقه ، فالمعنى تعلوهم تلك الثياب ، وتغشى ظواهرهم ^(١) . و [السندس] ضرب من نسيج البز ،
وقيل هو رقيق الديباج ، عربي أو معرب ، أما [الاستبرق] فهو غليظ الديباج ، معرب "استبره" ،
والديباج الثوب الذي سده ولحمته حرير ، وهو معرب أيضا ، (وحلوا) أى ألبسوا حلية وهي
ما يزدان به الشخص من مصوغ المعدنيات أو الحجارة الكريمة (أساور) جمع سوار : زينة معدنية
كالطوق يلبس في المعاصم والزنود ، وتلك الأساور (من فضة) ، وهي المعدن الأبيض المعروف ،
وفي سورة الكهف : (يحلون فيها من أساور من ذهب) ، وفي سورة فاطر : (يحلون فيها من أساور
من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) ، ولا تناقض إذ يمكن الجمع بين الصنفين في التحلي ، أو يحلون
بهذا مرة وبهذا مرة ، و [الشراب الطهور] هو البالغ في نقائه من القذى والشوائب المسادية ،
أو المراد طهارته مما يكون في الأشربة الدنيوية من الأضرار وسوء التأثير .

قوله (إن هذا كان لكم) الخ - مما يقال لهم أو يقوله بعضهم لبعض في الجنة وقت ثقلهم
في صنوف نعمتها ، أو هو خطاب مستأنف من الله ليبشر الأبرار وهم في دار الدنيا بأن ما وصف
من الثواب ، وعدد من مظاهر النعيم - ينتظرهم في النشأة الثانية جزاء طاعتهم له ، وأن [سعيهم]
الحسن في الترام أو أمره تعالى والوقوف عند حدود شرعه [مشكور] ، ومعنى كونه تعالى يشكر عليه
أن يثيب عليه خير ثواب ، وهذا هو معنى الشكر والحمد والرضا والعجب والحب والضحك إذا نسبت
إلى الله ، إذ تستحيل في حقه تعالى أمثال هذه العوارض البشرية ، والانفعالات النفسية .

مر في هذه الآيات أن الله تعالى قد أعد للكافرين سلاسل وأغلالا ، كما هي للأبرار أرائك
يتكئون عليها ، وعليهم ثياب السندس والاستبرق ، وفي معاصمهم أساور الفضة ، وبين أيديهم
ولدان كاللؤلؤ المشور يطوفون على أولئك الأبرار بصحاف الفضة وأكوابها الصافية صفاء البلور ،
وقد ملئت شرابا ممزوجا بالزنجبيل والكافور .

(١) لم يتعرض المؤلف لأعراب "عليهم" مع حاجته إلى البيان ، وقد قرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره ثياب ، وقرئ
بالنصب - وهو المشهور - فقيل : لأنه ظرف بمعنى فوقهم ، وهو خبر مقدم لثياب ، والجملة حال من الضمير المحرور
في عليهم وجعل أبو حيان عليهم حالا من ذلك الضمير ، وثياب مرفوعا على الفاعلية له (انظر روح المعاني) المصحح .

وذكر في مواضع أخر من القرآن وسائل مادية للذة والعذاب فوق ما ذكر ههنا وأبلغ منه .
ولإن النفوس لتتساءل عما إذا كانت هذه الوسائل والأدوات ، وأسباب اللذوى والبلوى مادية
حسية من عين ما نعهده في دنيانا هذه ، فهل الأغلال الحديدية كأغلالنا قاسية سوداء تقمع ؟
والأساور الفضية كأساورنا مدقورة بيضاء تلمع ؟ والخمرة المشروبة تكمرتنا سائلة حمراء تشعشع ؟
أم أن المراد بذلك شيء آخر له حقيقة روحية غير ما يفهم من ظاهر اللفظ ؟

ولعل الأسلم في الجواب أن يقال : إننا - معشر المسلمين - نؤمن بالعالم الأخرى ،
وبما وردت الأخبار الصحيحة به من وصف وسائل العذاب والنعم اللذين يقعان في ذلك العالم
من دون أن نتخلف أنفسنا عناء البحث عن حقيقتها ما دامت هي ممكنة الوقوع ، وما دامت
قدرة الله صالحة لخلقها وإعدادها .

وهناك آخرون يجعلون هذه الوسائل والأسباب تمثيلاً لآلام العذاب ومسرات النعم بما
اعتمدناه في حياتنا الدنيا من الوسائل والأدوات والأسباب ، بحيث يجعلنا هذا الوصف التمثيلي
نتعقل تلك الآلام والمسرات على نحو ما نتعقلها ونشعر بها عند التعرض لأسبابها ووسائلها ومثيراتها
في دار الدنيا ، على أن طائفة من أبناء هذا العصر المتعلمين لم يقنعهم ما اقتصرنا عليه هنا من
هذا البحث ، وتمنوا علينا أن نذكر ما هو الأحق بالقبول في هذه العقيدة مما يلائم روح العصر
ويلتحم مع معارف أهله وأحوالهم الثقافية والفكرية ولا يخرج به قائلة عن الملة . فأمثل هؤلاء
كتبنا رسالة بهذا الموضوع موضوع " ملذات الجنة ما هي ؟ " . ربما طبعناها على حدة
أو ألحقناها بهذا التفسير إذا يسر الله طبعه ونشره .

آيات هذه السورة من أولها تدور حول أقطاب ثلاثة :

(١) تذكير الإنسان بالبعث المكذب بخلقته الأصلية ، وبأن الإله الذى خلقه كذلك ، ومنتعه
بالحواس والمشاعر ، وأمدّه بصنوف النعم - قادر على خلقه ثانية بعد الموت ، فكيف يصح
إذن أن ينكر على الله ذلك ؟ بل كيف لا يكون تعالى جديراً بأن يشكرو ويطاع ؟

(٢) تخويف المكذبين بما أعده الله لأمثالهم من الأغلال والسعير .

(٣) ترغيبهم بما هيأ لهم من وسائل الغبطة والهناء إن هم شكرو وآمنوا .

وكثيراً ما كانت هذه الآيات وأمثال أمثالها معها تلقى على هؤلاء المكذبين ، فلا تحيكم

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ تَتَرَيَا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ
مِنْهُمْ ءَأَمَّا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾

في نفوسهم ؛ ولا يقابلونها بغير الصدود والإعراض ؛ فكان صلى الله عليه وسلم يأخذه شيء من
الوجوم والضجر ؛ مذ يرى تتابع أذاهم عليه ؛ وطول إعراضهم عنه ؛ وتماديهم في تكذيب الوحي
والاستهزاء به ؛ فكان من المناسب بعد تلك الآيات البالغة في تأثيرها ؛ ووقوف قريش أمامها
وقفة المكذب المعاند ؛ ووجومه صلى الله عليه وسلم ونجده واستبطائه نزول العقاب الإلهي بأولئك
المكذبين — أن تُشدد عزيمته ؛ وتفكك عن قلبه الشريف عرا المم والضجر بمثل قوله تعالى :
﴿إنا نحن﴾ أى لاغيرنا يا محمد الذين ﴿نزلنا عليك القرآن تزيلا﴾ لا لبس فيه ولا ريب ؛ ووعدناك
وأوعدنا المكذبين فيه بما وعدنا وأوعدنا ؛ فلا تبئس ولا تحزن ولا تضجر ؛ فالقرآن حق ؛
ووعدنا ووعدنا صدق ؛ ﴿فاصبر﴾ إذن ؛ وانتظر ﴿لحكم ربك﴾ أى لحين حلول وقت حكمه
وقضائه الفصل فيك وفي خصومك ؛ فينتقم لك منهم ؛ وتكون القلبة والنصرة لك ؛ والعقوبة
والدبرة عليهم . فاللام في قوله ﴿لحكم ربك﴾ هى التى يسميها النحاة اللام الحينية . وإذا أرادوك على
السكوت يا محمد وترك دعوتهم إلى الإيمان لقاء مال يفيضونه عليك ؛ أو عروس من بناتهم يزفونها
إليك — كما كانوا بالفعل يقولون ذلك له صلى الله عليه وسلم — فلا تصغ إليهم ؛ ولا تتخضع
بقولهم ؛ ﴿ولا تطع منهم آثما أو كفورا﴾ فيما يحاولونه منك ؛ ويداورونك عليه .

وقد كان أولئك المعاندون المكذبون بين منغمس في الآثام ؛ متعاط للفسوق : كعتبة بن
ربيعه ؛ فهو ينفر من الإيمان به صلى الله عليه وسلم وبالوحي ؛ لأن ذلك يحول دون تمتعه بشهواته
وينقص عليه حياته — وبين غال في ضلاله ؛ شديد الشكيمة في كفره ؛ كأبي جهل والوليد بن
المغيرة ؛ فهو ينفر من الإسلام واتباعه صلى الله عليه وسلم خشية مفارقة دينه ؛ وتوديع طواغيته
فقوله : ﴿آثما﴾ إشارة إلى الفريق الأول ، وقوله : ﴿أو كفورا﴾ إشارة إلى الفريق الثانى ،
و (أو) بعد المجد تكون بمعنى الواو . فالمعنى "ولا تطع منهم آثما ولا كفورا" .

ويروى أن عتبة كان يقول له صلى الله عليه وسلم : "ارجع عن هذا الأمر حتى أزوحك
ابنتي ، فإنى من أجل قريش بنات" . وكان الوليد يقول له : "أنا أعطيك من المال حتى
ترضى ، فإنى من أكثرهم مالا" . ولهذا قال له ربه : اصبر حتى يقضى الله بينك وبينهم ، فيظهر

وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾

أمرك ، ويرفع لك ذكرك ، ولا تطع أولئك الآثمين الجاحدين فيما يمتنونك به من صنوف الترف والنعيم ، فدع ذلك كله ولا تشغل قلبك به ، (واذكرا اسم ربك) فصل له واعبدته (بكراً) غدوة قبل الظهر ، (وأصيلاً) عشياً بعد العصر ، (ومن الليل) أيضاً (فاسجد له) ، أى صل له تعالى ، فالسجود بمعنى الصلاة ، و[من] في قوله : (من الليل) لافادة التبويض ، إذ لا بد من راحة له صلى الله عليه وسلم في بعض الليل وصلاة في بعض ، كما يكون ذلك في النهار . ولما كان الليل مظنة غفلة النفس ، وغلبة النوم عليها — عاد فأكد عليه صلى الله عليه وسلم الأمر بصلاة الليل ، لكيلا يفهم من البعضية المدة القليلة منه ، بل وقتاً طويلاً فقال : (وسبحه) ، أى صل له (ليلاً) ، أى وقتاً من الليل (طويلاً) ممتدا لا يقل عن الثلث ، ولا يزيد عن الثلثين كما مر بيانه في آية (قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أوزد عليه) . فالليل الأول من قوله : (ومن الليل) مراد به مجموع ساعاته من الغروب إلى الشروق ، والليل الثاني وهو قوله (ليلاً طويلاً) مراد به وقت وحصة منه ، ولذلك وصفه بقوله (طويلاً) ولو كان المراد به مجموع ساعات الليل ما ناسب وصفه بالطويل كما يظهر للتأمل ، والسجود والتسبيح مراد بهما هنا الصلاة كما أشرنا ، وكثيراً ما أريد بهما ذلك في القرآن والسنة ، والأرجح أن المراد بالصلاة في هذه الآية الصلاة التي كان يمارسها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه قبل أن تفرض الصلوات الخمس ، وكان اقتراض هذه الصلوات ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة وبعد البعثة باثنتي عشرة سنة ، فهو تعالى يأمر نبيه في هذه الآيات بالصبر على المكذبين ، وانتظار حكم الله فيهم ، والإعراض عما يمتنونه به ، ويعرضونه عليه : من زبارج الدنيا ، وبالأقبال على الله ، واستيعاب طرفي النهار وهزيع طويل من الليل في عبادته والابتغال إليه .

ثم إن الخطاب في هذه الأوامر وإن كان له صلى الله عليه وسلم فإن المراد به أيضاً صحابته الذين كانوا إذ ذاك في حاجة إلى أن يكونوا أشداء القلوب ، أقوياء الجلود والعزيمة ، ليقووا على الجهاد وبث الدعوة والصبر على المقاومة .

وقد شرحنا في أول سورة المزمل ما في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بالتهجد وقيام الليل وتحمل مشقات العبادة من الأثرالبين في تربيتهم النفسية ، وتقويتهم البدنية ، فراجعه إن شئت .

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ
وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾

قوله ((إن هؤلاء الخ)) فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ، وإقنات من إيمانهم به ، واتباعهم دينه ، وذلك لما فطروا عليه من حب الدنيا العاجلة ، وإيثار لذائذها الناجزة ، فهم يتهاقنون على ما بين أيديهم من هذه الشهوات ، ((ويذرون وراءهم)) أى يدعون ويترجون خلف ظهورهم ((يوما ثقيلا)) وهو يوم القيامة الثقيل الوقع ، الشديد الوطأة على هؤلاء الجاحدين المكذبين ، ومعنى طرحهم يوم القيامة وراء ظهورهم طرحهم العمل له ، وتركهم ما يؤدي إلى النجاة فيه من الإيمان والتصديق وممارسة الأعمال الصالحة ، وفي الإشارة إلى المكذبين بـ (هؤلاء) المفيد للقرب تحقير لهم ، واستصغار لشأنهم وإن كانوا يتجلببون للناس بجلايبب الكبر والعظمة .

ويحتمل أن يكون معنى الآية : أنهم منهمكون فيما بين أيديهم من عاجل لذات الدنيا وينسون أمامهم يوما قد هيئ لهم فيه عذاب ثقیل ، وهول وبيل ، فتكون (وراء) بمعنى أمام ، وكثيرا ما جاءت بهذا المعنى ، ويكون الكلام تعجيبا من حالهم ، وتعريضا بغبائهم ، مذكروا الحزم ولم يتدبروا الخطب وهو أمامهم .

وقوله : ((نحن خلقناهم الخ)) فيه عود إلى تليين الكلام لهم ، وترقيق الخطاب معهم ، وتذكيرهم بأنه تعالى هو لا غيره الذى خلقهم خلقا أحكم فيه صنعهم ، ووثق بالأعصاب ربط بعض أعضائهم ببعض ، فكانوا أقوياء أشداء معصومي الخلق ، مجدولى البدن ، وهذا معنى ((وشددنا أسرهم)) يقال : "قد أسر هذا الرجل فأحسن أسره" بمعنى أنه خلق فأحسن خلقه ، وأحكم تكوينه ، ومنه قول الأخطل فى صفة أفراس مجنوبة .

من كل محتنب شديد أسره سلس القياد تخاله مخالا

يمتن الله على هؤلاء المكذبين ، بل على سائر الخلق الجاحدين بأنه تعالى خلق أجسامهم صالحة لما يحتاجون إليه فى وجوه التصرف وممارسة الأعمال ومباشرة الأسباب .

وقوله : ((وإذا شئنا الخ)) أى ليس خلقنا لهم شديدا الأسر هو مبلغ جهلنا ، ومنتهى طاقتنا (و) لكن نحن مع هذا (إذا شئنا) أن نهلكهم أهلكتهم ثم ((بدلنا أمثالهم)) أى بدلنا بهم أمثالهم

إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾

من البشر بحيث نخلق الآخرين خلقا يحكى خلق الأولين في شدة الأسر ، وإتقان الصنع ، وتوثيق الأعضاء . والآية تحتل معنيين :

(١) أن يكون المراد بالأمثال الذين يخلقهم مكان الأولين المكذبين هم الأولون أنفسهم منذ يعثهم من قبورهم ويحييهم بعد موتهم يوم القيامة ، فهو تعالى يقول للمكذبين إنه تعالى كما خلقهم في الدنيا شديدي الأسر قادر على أن يخلقهم ثانية بعد الموت شديدي الأسر ويكون مغزى الآية إقامة الحججة على إثبات البعث وإمكان الحياة الثانية ؛ لأن من فعل الشيء مرة قادر على أن يفعله مرة أخرى .

(٢) أن يكون المراد أنه تعالى قادر على إهلاك المكذبين ، وأن يخلق في دار الدنيا غيرهم أمثالهم من البشر ، لكنهم مخالفون لهم في العمل ، فيطيعون أمره ، ولا يكذبون وحيه ، فهو تهديد لهم ، وحض على المسارعة إلى الإيمان قبل فوات الفرصة ، وتذكير بأنهم إن ماتوا هم فلا يظنوا أن أولادهم ومن يأتي من بعدهم يكونون في العناد والتكذيب أمثالهم ، بل إن صدق الوحي وصحة دعوى محمد عليه الصلاة والسلام هي من الظهور بحيث لا يخفى مكانها على أحد ، اللهم إلا من طمس على بصائرهم ، وهم هؤلاء المكذبون المخاطبون ، فيكون المعنى في هذه الآية كالمعنى في آيات : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) ، (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) ، (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

(هذه) إشارة إلى السورة وما اشتملت عليه من اللفظ الرشيق ، في الأسلوب الأنيق ، والمعنى الدقيق ، في الخطاب الرقيق . (تذكرة) ذكرى يتذكر بها العاقل ، وموعظة ينزجر بها الجاهل . (فمن شاء) من هؤلاء المكذبين الادكار والاتعاظ والانتفاع بهذه السورة والمشى على نورها (اتخذ إلى ربه سبيلا) أى أمكنه أن يتخذ من الإيمان والطاعة واتباع الحق وتصديق محمد عليه السلام سبيلا يؤدي به إلى رضوان ربه ، ودخول دار كرامته ، وذلك لما منحه من الهداية والتذكير والدلالة على الحق في هذه السورة وسائر سور القرآن مع ما متعه الله به من نور العقل وقوة الاستنتاج ونعمة الخواس . فأسباب الخلاص مبسورة ، وسبل النجاة ممهدة تحت مواقع أبصار العاملين إن أرادوا . غير أن غلبة العناد واستيلاء الجهل عليهم جعلهم لا يشاءون سلوك

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

هذه السبل الموصلة إلى النجاة (إلا) وقت (أن يشاء الله) أن يسلكوها (١) مشيئة إلهية مقترنة
بمشيئة جزئية مكسوبة لهم ، وهذا ما يعبر عنه في اصطلاح المتكلمين بالجزء الاختياري .

(إن الله كان عليما) بأحوال خلقه (حكيمًا) فيما يرسمه لهم من السنن والنواميس ، ويتزل
عليهم من الوحي والشرائع ، ويرسل إليهم من الأنبياء والرسل : مما فيه صلاح حالهم ، وانتظام
أمرهم ، وارتقاء عمرانهم . وقد سبق زيادة إيضاح لهذا البحث عند قوله تعالى في سورة المدثر
(كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) ، وقوله أيضا فيها (فن شاء ذكره . وما يذكرون
إلا أن يشاء الله) .

ثم ختمت هذه السورة ببيان عاقبة الفريقين اللذين تضمنهما قوله تعالى : (فن شاء اتخذ
إلى ربه سبيلا) ؛ فإن مفهومه أن فريقا يتخذون سبيلا إليه تعالى وهم المهتدون ؛ وفريقا آخر
لا يتخذ ذلك السبيل إليه تعالى وهم الظالمون ، أى الجائرون عن سبيل الإيمان ، الواضعون
عملهم وسعيهم في غير مواضعه ، وهذا هو الظلم في أصل معناه اللغوي .

فالفريق الأول قال الله عنهم : (يدخل من يشاء في رحمته) ، أى جنته ورضوانه . وعبر عن
هذا الفريق الناجي بقوله (من يشاء) للإشارة إلى ساحة الإطلاق ، وإلى أن دخولهم الجنة يكون
بمحض مشيئته تعالى لا يكرهه عليه مكره .

وقال عن الفريق الثانى وهم الذين حادوا عن سبيل الإيمان : (والظالمين أعد لهم عذابا
أليما) : فعل [أعد] اشتغل عن أن يعمل بكلمة (الظالمين) بضميرها وهو [لهم] فيقدر للظالمين
فعل ناصب يفسره [أعد] مثل أن يقال : "وأوعد الظالمين أعد لهم" أو "وجازى الظالمين أعد لهم"
والمعنى أنه تعالى يدخل المهتدين المصدقين جنته حسب مشيئته وتفضله عليهم ، كما يدخل
الظالمين المكذبين دار عذاب مؤلم أرسدها لهم .

(١) وذهب قوم في تفسير هذه الآية إلى غير هذا فقالوا : (إلا أن يشاء الله) قهرهم عليها بإزالة عذاب من السماء
مثلا يترصد من فوقهم أو تحت أرجلهم إن لم يؤمنوا ، فيؤمنوا إذ ذاك . لكن حملهم على الإيمان وإلجاءهم إليه بهذه
الطريقة لم يردده الله ، ولم يجعله سنة من سننه الكونية في سياسة الخلق واستصلاح أمر البشر ، لحكم وأسرار يعلمها تعالى .
وإنما اختاروا هذا المعنى في تفسير الآية هروبا من عقيدة الجبر المنقوطة ، وحفظا لكلام الله من التناقض ، وصونا
لأوامره تعالى من التدافع ، ولئلا يكون للناس على الله حجة ، فيدعوا العمل ويضلوا المحجة المؤلف .